الشهيد القائد

« وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ
اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ۝ وَلَئِنْ مُتُّمْ
أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ .. »

obeikandl.com

(١)

عاد أهل العقبة من الأنصار إلى المدينة ، وقد بايعوا رسول الله ﷺ بمكة على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، وعلى أن يحاربوا فى سبيله الأبيض والأحمر والأسود من الناس .

وتنافس الأوس والخزرج فى رفع منار الحق بالمدينة ، ليهتدى إلى نوره التائهون فى ظلمات الحياة ، وليلتف من حوله الضالون عن الحقيقة العلوية . . فى بيداء الجهالة والشرك والوثنية .

وتصل إلى رسول الله فى مكة تلك الصفحات المشرقة ، التى يسطرها قارىء الإسلام العظيم سعد بن عبيد على رأس الأوسيين بلاء صادقا فى نشر رسالة التوحيد ، فتأسو عنه ﷺ آلامه الممضة التى يبعثها فى أوصاله عناد القرشيين وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له . . ثم تتوالى تلك الصفحات وتتوالى معلنة عن ذلكم النبأ الخطير . . نبأ مسجد قباء الذى أقام عماده الأنصار خلف قارئهم سعد ، على رأس الدرب الممتد إلى المدينة من جانب حى الأوس ، حيث تلتقى عنده الدروب فى غدوات العرب وروحاتهم عبر الصحراء . . وحيث يتولى سعد قيادة الدعوة المحمدية فيه ، بما وهبه الله من علم بالقرآن ، وإحاطة بأسراره وتعاليمه . .

وتدور عجلة الزمان لتمهد لرسول الإسلام أرض الهجرة ، فتصبح المدينة شعلة من النور والهداية ، وحصنا من القوة والمنعة والوفاء . . حتى إذا ماهاجر إليها النبي وصحبه ، ألفوها دار أمنهم

ووحدتهم ، ومنزل عزهم واستقرارهم . .

وقرت عين الرسول الأعظم بما بذله سعد ويبذله من جهـــاد صادق وسهر طويل لتدعيم أركان العقيدة فى قلوب المؤمنين ، وتثبيتها بوجه خاص فى حنايا أهل ذلك الحى من الأوس ، حيث صار سعد فخرهم الذى يزهون به بين الناس فى ساحة الحق . وأراد ﷺ أن يكرم الواقع فى نفس سعد ، فأطلق عليه اسم « القارىء » دون غيره من أصحابه أنصارا ومهاجرين . ! ! ثم أقره على الإمامة بمسجد قبـــاء .

• • •

وخرج الرسول إلى بدر ، وما كان ﷺ يظن أنه سيلقى حربا مع قريش ، فلم يستكره أحدا على الخروج معه ، ولـــكن ما كان لقارىء الإسلام أن يتخلف عن رسول الله فى موطن من المواطن .. فكان فى مقدمة الصفوف . . حتى إذا مادارت رحى الحرب الطاحنة بين الفريقين المتباينين ، كان سعد بن عبيد يخوض المنايا بسيفه ، فينتصر على الموت ذاته حين يطلب الشهادة لنفسه فداء لعقيـــدته ، وذودا عن رسوله ، وشوقا إلى جنة عرضها السموات والأرض ...

وفى أحد أبلى سعد أصدق البلاء ، وعرض نفسه للموت مرات ومرات ، ولكن الله كتب له السلامة ليخرج مع رسول الله إلى كل المشاهد . . فقاتل فى الخندق ، وشاهد الحديبية ، وحارب فى مؤتة ، وحضر الفتح وحنين والطائف وتبوك . . حتى إذا ما جهز رسول

الله آخر جيش فى حياته لمحاربة الروم بأرض البلقاء من الشام ، كان قارىء الإسلام يحمل سيفه تحت قيادة أسامة بن زيد ، مع سادة المهاجرين والأنصار . . .

وحالت إرادة الله دون أن يمضى جيش أسامة إلى وجهه فى حياة رسول الله ، فلقد أحس ﷺ بدنو أجله بعد أن حج حجة الوداع من نفس العام ، وأراد أن يجمع للمسلمين آيات الله وسور التنزيل ، فكان سعد رابع أربعة جمعوا القرآن بين يدى رسول الإسلام . .

وصعد الرسول الأعظم إلى الرفيق الأعلى ، فبكاه سعد أشد البكاء ، حتى هده الحزن وأضناه الألم . .

وتولى أبو بكر خلافة المسلمين ، فعرف الفضل لقارىء الإسلام ، فأقره على ما كان عليه من أمر الإمامة فى مسجد قباء ، وكان يحضر إلى حلقته مكرما ومثنيا . . حتى إذا ماتطاولت رءوس الفتن ترفع رايات الردة والكفر فى أقصى الجزيرة وأدناها ، ودعا خليفة رسول الله إلى حرب المرتدين ، وعقد الألوية لأحد عشر جيشا ، استأذن سعد الخليفة للخروج بعد عودته من جيش الروم . . وكم كان خوف المسلمين عظيما أن يلقى سعد نحبه فى تلك المعارك التى يكتنفها الموت من كل جانب ، فيذهب بذهابه الكنز النفيس من النور والحكمة ، ويغور باستشهاده البحر العميق من العلم والهداية . . ولكن أنى لقارىء الإسلام العظيم أن يقعد عن الجهاد خشية الموت ، أو

يبطىء به السعى إلى منازل الأبرار تحت ظلال السيوف . . ومن ثم أبى إلا أن يأخذ مكانه فى مقدمة الصفوف إلى النصر أو الشهادة . .

وتمت كلمة الله للذين آمنوا، فمحوا من أرض الجزيرة كل ظل للشرك والوثنية . وأعادوا لرسالة التوحيد أزمة النصر فى الآفاق . . واستشهد فى سبيل الله الألوف من أهل التوحيد ، وكتب الله السلامة لسعد ، فعاد مع من عاد ليرى عزم الخليفـــة معقودا على المضى فى سبيل الجهاد المقدس ، حيث تقتحم جيوش المسلمين الأرض التى وعدهم الله على لسان رسوله قبل صعوده .. أرض كسرى وقيصر . .

وأسرع قارىء الإسلام العظيم ليستأذن الخليفة فى الخروج مع جيش العراق . . وما كان الخليفة ليستطيع أن يرد سعدا عن غايته ، رغم مايخشاه المسلمون على حياته الغاليـــة ، فأقره أبو بكر . . وحمله أمانة القضاء بين المسلمين فى أمورهم من خلال الفتح ، ووضع فوق كاهله مهمة الهداية لأولئك الذين سوف يستضيئون بنور الإسلام من عبدة الطاغوت . .

ومضى الجيش الخطير خلف قائده أبى عبيد الثقفى ، وصار سعد يصل ليله بنهاره . . فإذا ما أصبح ، كان الليث الهصور ينهش رقاب الكفار بسيفه ، وإذا ما جن عليه الليل ، كان على رأس الحلقة من الناس ، يتلو عليهم آيات الله ، ويبصرهم بأسرار التنزيل ، ويحكم فيما بين يديه من أقضية . . حتى إذا ما كانت الأجساد تهدأ ـ من فرط الجهد ـ فى الخيام الممتدة على طول العسكر ، كان سعد ينفرد بنفسه ليختلى بربه

ساعة يطول من خلالها خشوعه وتضرعه بين الذكر والصلاة ..

واستمرت الريح للمسلمين ، وصاروا ينتقلون من نصر إلى نصر فى أرض كسرى ، لا تردهم عقبة ، ولا يقف فى سبيلهم كيد ، ولا يضعف من بأسهم نضال الأعداء العنيف .. إلى أن كان ذلك اليوم المشئوم - يوم الجسر الرهيب - على ماء دجلة ، وقد تجمعت فلول الفرس فى أعظم عدد وأوفر عدة لخوض حرب يائسة ، قد استوت فيها أمام الأكاسرة كفه الموت وكفة النجاة ، فما عادوا يبالون بالحياة نفسها .. وكاد الفوز يكون حليف المسلمين وقد أوغلوا فى الفرس قتلا وفتكا ، وكادوا ينتهون من عبور الجسر ، بعد أن أزاحوا عنه أعداءهم .. إلا ما كان من أمر أحد المسلمين وقد خشى كرة العدو فقطع ذلك الجسر .. فسقط المسلمون من فوقه أفواجا فى النهر ، فكر عليهم جيش الأعداء كرة عنيفة ، استشهد فيها قائد المسلمين ، ومن ورائه الكثرة الهائلة .. ولاذ بالفرار بقية الجيش ، فما وقفوا إلا عند الحدود بين الجزيرة وفارس . ! ! وكان سعد القارىء من الشرذمة الفارة ! !

وعاد قارىء الإسلام إلى المدينة منكس الرأس ، قد احتواه الخزى من نفسه .. فلا يكاد يرفع رأسه مما يحس به من العار ، وما تضيق به نفسه من رداء الهزيمة المنكرة . . فأوى إلى بيته وقد تزاحمت عليه أثقال المحنة ، وأرقته آلام السهاد ، وأمرضه وخز الضمير .. فصار طريح الفراش . ! !

وخاف الخليفة أن يعوده بنفسه ، فيشتد على قارىء الإسلام وقع الصدمة ، فبعث إليه عمر بن الخطاب ..!!

وكانت لحظات رهيبة ، لم يستطع خلالها ابن الخطاب أن يخفى عن وجهه سمات اللوم أن يفر ابن عبيد من ميته الحق ، وهو الذى طالما حض المسلمين عليها من خلال تاريخه الطويل !! وطالت اللحظات الرهيبة .. والرجلان من خلالها ينظران بعضهما إلى بعض ، فلا تنبس شفاهما بكلمة واحدة !! ثم آثر ابن الخطاب فى النهاية أن يسرع فى الانصراف . . فلقد رأى سعدا كأنه يحتضر !!

وأقبلت على المدينة نسمات الرضى فجأة . . فلقـــد عوض الله المسلمين عـــن هزيمتهم فى أرض كسرى، نصرا مؤزرا فى أرض قيصر .. وانتصرت جيوش التوحيد فى موقعة اليرموك ، واندك أمامها أعظم صرح للأعداء فى بلاد الروم .. ولم تكد المدينة ترفع رايات الفرح والبشر ، حتى نكستها من جديد .. حيث اختار الله إلى جواره خليفة رسول الله !!

(٢)

وتولى عمر بن الخطاب خلافة المسلمين . . فأقر سعدا بن عبيد على إمامة مسجد قبـــاء ،أسوة برسول الله وخليفته أبى بكر . . وصار يظهر له العطف والتكريم ، لينسى قارىء الإسلام ما كان من أمره يوم الفرار . !!

وأذن مؤذن التعبئة لإنشاء جيشين عظيمين ، حيث يشق أحدهما

سبيله إلى أرض كسرى ليعيد فتحها من جديد ، ويمضى الآخر مدداً لجيش أبى عبيدة بن الجراح بأرض قيصر ..

واجتمع عمر بابن عبيد ، وعلى شفته ابتسامة لهـــا مغزاها ، فقال له :

ـ هل لك فى الشام ، فإن المسلمين قد نزفوا به ، وإن العدو قد ذئروا عليهم ، ولعلك تغسل عنك الهنيهة ! ! ؟

وأجابه .. سعد فقال :

ـ لا . . إلا الأرض التى فررت منها ، والعدو الذين صنعوا بى ما صنعوا ! !

وفى مقدمة جيش المسلمين إلى فارس ، سار سعد بن عبيد تحت لواء سعد بن أبى وقاص .

وعلى أبواب الأرض البيضاء بين العرب والفرس ، التقى جيش ابن أبى وقاص بجيش النعمان بن المنذر ملك الحـــيرة المسيحى ، فى أخطر معركة يخوضها المسلمون ضد قوات كسرى وحلفائه من الملوك .. وكانت محنة صبر من خلالها المسلمون ، فأبلوا أشد البلاء .. وأوقفوا سيل أعدائهم حتى طلبوا المدد الكثيف ليدفعـــوا عن أنفسهم سوء المصير . .

ووقف النعمان بن المنذر ليخطب جيشه ، وقد تجمع من جديد .. وما كاد يبدأ كلامه فيهم ، حتى رأى هرجا ينبعث فى أطراف حرسه ، وإذا بصاحب الحرس يهمس فى أذنه يقول :

ـ أيها الملك .. إن أعداءنا قد أنفذوا إلينا رسولا ..

وامتقع وجه النعمان .. وقال :

ـ ائتنى به .

ودخل سعد بن عبيد قارىء الإسلام مرفوع الرأس ، يدق الأرض برجله وسيفه ، غير مبال بتلك الجموع الحاشدة .. وحرس النعمان يصيحون به من خلفه : ليقبل الأرض تحية للملك ويقولون :

ـ الأرض للملك .. الأرض للملك ! !

ولكن سعدا أخذ يبالغ فى ضرب الأرض بقدمه وسيفه فى طريقه إلى النعمان ، وهو ينظر إلى الحرس نظرة استخفاف ، ويقول بصوت جهورى :

ـ إن الله أمرنا ألا يسجد بعضنا لبعض ، ولعمرى إن هذه كانت العادة المعروفة فى الجاهلية قبل أن يبعث الله نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام ، فلما بعث جعل تحيته السلام .. وكذا كانت الأنبياء من قبله ، والسلام من أسماء الله تعالى .. وأما تحيتكم فهذه تحية جبابرة الملوك ! !

وارتاع النعمان من جرأة سعد وهيبة منظره ، وشاء أن يخفف من شدة ما لحقه من حرج أمام جنده ، فقال لسعد :

ـ لسنا من الجبابرة ، بل نحن أجل منكم ، لأنكم توحدون فى دينكم وتقولون إن الله واحد ، وتجحدون ولده عيسى بن مريم ! !

وهز سعد رأسه سخرية وهو يبتسم ليحاجه ، فقال :

ـ أخبرنى يا نعمان عن عيسى بن مريم .. أكانت القدرة فيه حالة ، أم ربانية ؟ !

وتلعثم النعمان فلم يستطيع أن يجرى جوابا .. أنه رأى هزيمته فى فى الرأى فى كلا الحالين ، ومن ثم أخذته عزته بجهله ، ولم يملك أن قال لسعد :

ـ ويح قومك .. ما الذى جئت لأجله !؟..

وابتسم قارىء الإسلام استهزاء بالنعمان مرة أخرى .. وقال :

ـ إن الأمير سعد بن أبى وقاص وجهنى إليك ، إذ أنت من العرب ، ويصل إلينا ما يقضى عليك ، وهؤلاء القوم علوج ليس لهم شريعة يؤدونها ، ولا فريضة يتبعونها .. نحن ندعوكم إلى شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ولكم ما لنا وعليكم ما علينا .. فإن أبيتم فأدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون .. فإن أبيتم ما دعوناكم ، فأنذروا بحرب من الله ورسوله .!!

وتلعثم النعمان مرة أخرى وهو يستجمع شتات فكره من هول المفاجأه .. ثم قال لسعد :

ـ لقد حدثتكم أنفسكم الأباطيل !! أظننتم أن الفرس مثل الروم !؟ كلا وحق المسيح ، إن هؤلاء أثبت جنـــانا ، وأشد طعانا وأوسع ميدانا .. فليت شعرى من نفخ فى معاطسكم ، وحسن الأمل فى نفوسكم ، حتى جئتم من قحط البلاد ترومون ملك الأساورة وأخذ بلاد الأكاسرة ، ودونه حرب تصطفق أحرامـــه وتشب ضرامه .. وهذا الملك « أزدشير » قد أنفذ جيوشه وعساكره ، وكأنكم بهم وقد أقبلوا فينالون منكم ما تؤملون ، وما حدثتكم به أنفسكم تزيلون من قلوبكم .!!

وأجابه سعد على الفور ، فقال :

ـ يانعمان ! ! لقد تشدقت بالباطل ، وتنوهت بكلام غير عاقل !؟ أما علمت أن العاقبة للمتقين ، والله بكرمه يرفع عنا الباس ويظفرنا بجميع الناس .. وقد قال نبيه ﷺ : « ستفتح على أمتى كنوز كسرى وقيصر ، فأما كنوز قيصر فقد فتحها الله علينا .. وقد بقيت كنوز صاحبك !!

وارتعدت فرائص النعمان أمام قوة سعد . وقد رأى فى قارىء الإسلام صورة من آلاف الصور التى تعسكر فى الوادى على مقربة منه ، والتى جاءت لتموت أو لتنتصر ، ولا شىء دون ذلك أو غير ذلك .. فتملكته الحدة والرعشة ، وما لبث أن قال :

ـ من أين كان لصاحبك العلم ، ومن أين ورثه ، وقد بلغنا أنه كان لا يكتب ولا يقرأ ! ؟

ـ قد بصره الله بالعلم فى القدم ، وعلمه ما كتب فى اللـــوح المحفوظ بالقلم ! !

وطال الأخذ والرد بين النعمان وسعد .. ويئس ملك الحيرة من أن يهز شعرة فى جسد قارىء الإسلام العظيم .. وخاف أن يتطور الحديث إلى شدة وعنف ينالان من هيبته بين جنوده ، وما لبث أن قال لسعد :

ـ ياويح قومك إلى قلوس .. فليس عندنا جواب إلا السيف !!

وعاد سعد إلى عسكر المسلمين ، لينبىء ابن أبى وقاص بما كان من أمر النعمان .. وما كان غير يسير حتى زحفت قوات الحق ، وسعد القارىء على الميمنة .. واشتد القتال البئيس ، وكثر القتلى من الفريقين .. وصمد المسلمون صمود الطود ، وأخذوا يطوقون قوات

الحيرة على كثرتها وامتدادها ، حتى أطبقوا عليها يثخنونها قتلا وجراحا..

ورأى النعمان ألا ملجأ من الفناء غير الفرار . . ولكن هيهات أن يفر من قبضة المسلمين . . فلقد عاجله قارىء الإسلام بميمنته ، وحال بينه وبين الهرب . . وحز المسلمون رأسه ورءوس أشياعه من جنود الفرس . . إلا من أدرك منهم فرصة الإفلات ففروا هائمين..

وتقدم جيش الإسلام ليتوغل فى أرض كسرى ، وليكتب فى سجل النصر الحاسم صفحة إثر صفحـــة . . حتى إذا بلغ أبواب القادسية ، ألفى الجموع الهائلة من جيش الفرس ، وقد تجمعت لخوض حرب أخيرة مع المسلمين . . فإما بقيت فارس من بعدهـا كسروية أبدا ، وإما صارت إسلامية أبد الآبدين ! !

واشتد أوار الحرب ، وحمى وطيسها ، واستحر القتل بين الجيشين المتباينين . . الفرس فى كثرتهم الغـــاشمة ، والمسلمون فى قلتهم المستبسلة . . واستمر القتال العنيف ليل نهار يومين كاملين . . وفى الليلة التالية اعتلى قارىء الإسلام منبره بين المسلمين ، وأخذ يخطب فيهم من روحه ، حاثا على الصبر والصدق ، ابتغاء مرضاة الله والجنة . . ثم قال :

— إنا ملاقو العـــدو غدا . . وإنا مستشهدون ، فلا يغسلن عنا دم ، ولا نكفن إلا فى ثوب كان علينا . . !

والتقى الجمعان ليلة الهرير ، وصدق المسلمون ربهم ماوعدوه . . فصدقهم الله وعده . . نصرا هز أركان الوجود كله . . ودفع جنود الحق ثمن النصر غاليا من دمائهم وأرواحهم . . بل دفعوا ماهو أعز وأغلا . . لقد دفعوا روح سعد القارىء قربانا للفوز المبين . .